ملامح منهج النبي ﷺ
في التربية اللغوية للصحابة رضي الله عنهم
وامتدادها في مجالس الاقراء
دراسة تأصيلية تحليلية

أ.د. خالد فهمى
كلية الآداب / جامعة المنوفية

أولا : ملامح منهج النبي ﷺ
في التربية اللغوية للصحابة رضي الله عنهم

(١) مدخل : النبوة واللغة !

استقر الأمر في باب النظر إلى أمر النبوة في الاعتقاد الإسلامي أنها هبة ربانية، لا مدخل للصناعة البشرية فيها، وهو ما يفسره قول القائلين إن النبوة اصطفاء رباني وهو بعض المعنى الذى يسكن قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ .... ٧٥ ﴾ [سورة الحج ٧٥/٢٢].

و مع هذا المستقر فإن ثمة ملامح مهمة توحى بما يمكن للناس أن يستفيدوه، من علامات الرعاية الربانية للنبي ﷺ على طريق تهيئته ﷺ لحمل الرسالة وتوظيف ذلك الذى استفادوه في برامج التربية المختلفة، ولا سيما اللغوية منها.

ومن ملامح رعاية الله لنبيه ﷺ ملمح يمكن أن يستثمر في نطاق التربية اللغوية، يقول تعالى : ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦ ﴾[سورة الضحى ٦/٩٣] .

وفى الآية لفظ مهم يحتاج إلى قدر من الفحص، وهو آوى، ذلك أن الإيواء معنى جامع هنا بما توافر لتحقيقه انتقال النبي ﷺ إلى البادية في بنى سعد، والبادية بيئة لغوية نوعية فصيحة، ويصبح مفهوم استرضاع النبي ﷺ في بنى سعد متوجها إلى الاسترضاع الذى به نمو الجسم، والاسترضاع الذى به نمو اللغة نموا خاصا ومتميزا من خلال الاختلاط بلغة البادية الفصيحة، وهو نوع تهيئة تعين على الوظيفة الكبرى في حياة كل نبي ألا وهي البيان والبلاغ إلى الناس، يقول ﷺ " أنا من قريش ونشأت في بنى سعد فأنى لى اللحن " (مراتب اللغويين ص٢٣) .

ومن ثم فإن بإمكاننا أن نقرر أن رعاية الله تعالى لنبيه بتربيته لغويا أمر ظاهر العلامات، ومنطقي من جهة أن اللغة هي الآلة العبقرية الحاملة للرسالة، والمؤدية للهدى والمحققة للبلاغ.

ومن المباحث النادرة في تناول السيرة النبوية معالجة منهج النبي ﷺ في تربية الصحابة رضوان الله عليهم لغويا.

صحيح أن العلم الإسلامي يرى في الصحابة منجزا تربويا أنتجه النبي ﷺ بامتياز، لكن أحدا لم يفحص جهده ﷺ في تربيتهم لغويا.

وسوف يقف هذا المقال أمام مجموعة من العلامات والملامح التي يمكن أن نقرر من ورائها أن ثمة منهجا نبويا للتربية اللغوية للصحابة .

وهذا المنهج النبوي يحتاج إلى قدر كبير من الصبر على تتبع إجراءاته وأساليبه، ويحتاج إلى مزيد دراسة، وفحص واستجماع الأدوات للكشف عنه والإفادة منه في التخطيط التربوي في برامج التربية اللغوية.

وفيما يلى محاولة للكشف عن هذه الملامح الكبرى العامة التي توافر عليها المقام النبوي الكريم في تربية الصحابة تربية لغوية تعينهم على حمل رسالة الإسلام، وأداء الدعوة إلى الله سبحانه.

ومن ثم فإن تربية النبي ﷺ للصحابة لغويا تدخل في باب قيامه بالبلاغ والبيان بتنشئة الجيل الأول الذى سيواصل بلاغ الرسالة وحملها إلى الآفاق.

(٢) تربية النبي ﷺ للصحابة رضي الله عنهم لغويا:

علامات على الطريق

وفيما يلى محاولة لرصد العلامات على طريق تربية النبي ﷺ للصحابة لغويا .

ونبدأ فنقرر أن التربية اللغوية مبحث شركة بين علم اللغة التطبيقي وبين علم النفس وعلم التربية وعلم الاجتماع، ويقصد بها دراسة كيفية تنمية لغة قطاع من الناس، وتطوير ما لديهم، ودراسة وسائل هذه التنمية، وإجراءاتها ووسائلها.

وثمة سؤال مهم يقول : لماذا نفترض أن هناك منهجية نبوية في تربية الصحابة لغويا ؟ للإجابة عن هذا السؤال أرجو أن نتذكر ما يلى :

أولا - أن للغة أهمية تأسيسية في تصور البلاغ والبيان والدعوة النبوية.

ثانيا - أن ثمة أخبارا وروايات تقرر عناية النبي ﷺ بتربية الصحابة لغويا، ولاسيما أن اللغة كانت بابا واسعا لإيمان كثير من العرب الفصحاء .

ثالثا - أن عددا كبيرا من علماء العربية، ولاسيما علماء البلاغة يقررون أن هناك ما يشبه أن يكون طريقة خاصة لكلام جيل الصحابة، يسميها الدكتور محمد محمد أبو موسى (سمت الكلام الأول)، يقول : " لم أجد دراسة تعنى ببيان مذهب الكلام ومنهاجه ... وبيان سمت البيان في الأزمنة المختلفة وخصوصا سمت كلام الجيل الذى نزل فيه القرآن ". ومراجعة كتاب الرجل :(شرح أحاديث من صحيح البخاري : دراسة في سمت الكلام الأول)[مكتبة وهبة بالقاهرة سنة ١٤٢١هـ=٢٠٠١م] توقفنا على نسب تكرارية مرتفعة لهذا المصطلح : سمت الكلام الأول، مستعمل في سياقات تحليلية للأحاديث المختارة .

رابعا – استقرار أمر تأثير البيئة في لغة الأفراد

خامسا - استقرار أمر تأثير القادة النوعيين في لغة متبوعيهم، وهو ما نلمسه في المدارس الشعرية والأدبية، من تأثير المتقدم المبدع في عدد كبير ممن يأخذون ويروون

عنه وتعلق الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالنبي ﷺ وملازمته والحرص على تقليده والتأسي به أمور متواترة، مستفاضة .

وإليك العلامات التي توافرت لنا في هذا المجال المبكر:

أولا - المدونة الحديثية الراعية للتربية اللغوية (تهيئة البيئة التربوية).

أخرج كثير من كتب السنة الشريفة عددا من الأحاديث تدور حول ما يمكن أن يسمى إطارا إعداديا للتربية اللغوية للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ منها :

❖ - يقول رسول الله ﷺ لرجل لحن، أي أخطأ في اللغة بحضرته: " أرشدوا أخاكم فقد ضل " (مراتب اللغويين، لأبى الطيب ص ٢٣).

❖ - ما جاء عن عمر من أنه كان يعاقب عمال (موظفي الجهاز الإداري للدولة) على الخطأ في اللغة، فيما يرفعونه من وثائق وتقارير ومستندات، روى أبو الطيب اللغوي في كتابه(مراتب اللغويين ص ٢٣) " وكتب كاتب لأبى موسى الأشعري إلى عمر "من أبو موسى " فكتب إليه عمر :" سلام عليك . أما بعد فاضرب كاتبك سوطا وأخر عطاءه ". وبعيدا عن فحص الأثر من جهة الرد والقبول، فإن تواتر الرواية تاريخيا كاف في تقدير المسألة.

❖ - ما روى من أن الصحابة العلماء كانوا يَرَوْن الخطأ في اللسان كالخطأ في الرمي أو أقبح.

من هذه النصوص أو الأخبار وغيرها ندرك أن ثمة بيئة أولية تهيأت للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تتلخص ملامحها في الرفض للخطأ في اللغة، وهذه البيئة أو الأجواء من العوامل المعينة على الاستجابة لبرامج التربية اللغوية، كنوع من الفرار مما هو مذموم معيب من جهة النبي ﷺ على الأقل، لو كان من باب الكراهة التي ترفضها أخلاق الناس أو ما يسمى باسم خوارم المروءة.

ثانيا : تدريب النبي ﷺ للصحـــــابة

على النطق الصحيح بالطرق المختلفة

مما تواتر الخبر به أن النبي ﷺ كان يقرئ الصحابة ؛ أى : يسمعهم كيفية أداء النص الكريم أداء صحيحا، وهناك أدلة كثيرة على هذا الذى نقرره:

١ - تواتر الأحاديث التي تأمر بقراءة القرآن، :" اقرءوا القرآن" (انظر : الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ٥٢/١ مكتبة الحلبى ١٩٨٢م) والمفهوم من القراءة هو تحريك اللسان بالكلام.

٢ - اشتراط القراءة، التي هي تحريك اللسان، في الصلاة، وهو تكرار يؤدي إلى اشتقاقه الملكة اللغوية، وهو الأمر المعروف بتمارين التقدم في الكلام بالتدريب المستمر.

٣ -تواتر الأحاديث المخبرة عن أن النبي ﷺ كان يقرئ الصحابة ؛ أى : يعلمهم قراءة الذكر الحكيم من مثل :

- « أقرأني رسول الله ».
- «أقرأنيها رسول الله».
- «إنك أقرأتها إياه».
- « اقرأتني آية كذا».
- «على غير ما أقرأتنيها».
- « أم تقرئني كذا؟».

(انظر : المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي لفنسنك، ليدن سنة ١٩٦٥م ٣٣٨/٥ -٣٣٩).

والإقراء باب ضخم من أبواب تدريب اللسان على القراءة الصحية، وهو الأمر المستقر اليوم في باب تعلم اللغات عن طريق الاستماع، إلى المتدرب المتعلم والتصحيح له.

٤ - تواتر تشجيع حلقات القراءة، بما هي معامل تربوية لغوية، يقول سهل بن سعد الأنصاري، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقترئ، يقرئ بعضنا بعضا، فقال : الحمد لله كتاب الله عز وجل واحد فيه الأحمر والأسود، اقرءوا . اقرءوا . اقرءوا " (فضائل القرآن لأبى عبيد، تحقيق مروان العطية وآخرين، ط . دار بن كثير دمشق سنة ١٤٢٠هـ=١٩٩٩م ص٦٨) ومصطلح الاقتراء هنا مصطلح شديد الأهمية في برامج التربية اللغوية، يقوم عليه المختبرات اللغوية المعاصرة .

٥ - تواتر الأحاديث التي تخبر أن رسول الله ﷺ كان – يسمع القرآن من الصحابة، وهو نوع من التدريب لهم، تعرفه أدبيات التربية اللغوية المعاصرة في باب تثمين القراءة بالصوت المرتفع وأثرها في تنمية الملكة اللغوية لمن يفعلها.

يقول رسول الله ﷺ : "إنى أحب أن أسمعه من غيرى " (المعجم المفهرس ٥٣٨/٢)، ذلك أن القراءة بالصوت المرتفع مقدرة الأثر في التربية اللغوية.

ثالثا- قيام النبي ﷺ بوظيفة

المعجم الحي المتحرك

و أقصد بذلك ما كان يؤديه رسول الله ﷺ لمجتمع الصحابة رضي الله عنهم من بيان للألفاظ والتعابير الغامضة، وهو ما يمكن أن نعبر عنه بأنه كان يقوم بوظيفة المعجم الحي المتحرك بينهم.

ولعل أظهر دليل على ذلك هو ما جمعه علماء السنة في مصنفاتهم تحت عنوان باب التفسير ؛ أى ما فسره النبي ﷺ من كلمات القرآن وآياته للصحابة وهناك أمثلة كثيرة جدا لهذا الباب، بلغ حجمها في البخاري ما يقرب من ثمن الصحيح.

وهذا النوع من الأحاديث مهم جدا في باب التربية اللغوية للصحابة بما هم حاملوا الرسالة ومؤدوها، ذلك أن بيان معاني المفردات بعد تحصيل نطقها الصحيح يكمل

دائرة الارتقاء اللغوي بتحصيل عنصري العلامة اللغوية :(الدالي أو اللفظ، والمدلول، أو المعنى).

ويرتبط بهذا النوع من الأحاديث، أحاديث تصحيح المفاهيم من مثل سؤالاته ﷺ للصحابة عن مفاهيم معينة، وتصحيحه لما في أذهانهم من مثل حديث: « ليس الشديد بالصرعة، وإنما الذى يملك نفسه عند الغضب » فأنشأ مفهوما جديدا للشديد يتعلق بنسق قيمي مراد، هو امتلاك النفس عند الغضب .

ويرتبط بهذا النوع أيضا الأحاديث التي يمكن تسميتها بالحوارية، التي يتبادل فيها النبي ﷺ الحوار مع بعض صحابته من مثل حديث : «كيف أصبحت يا حارثة؟ فقال : أصبحت مؤمنا حقا، فقال : وما حقيقة إيمانك ؟ فقال : أصبحت زاهدا في الدنيا، فأسهرت ليلى وأظمأت نهاري ...قال : عرفت فالزم» .

وعلماء التربية اللغوية المعاصرين يقررون الأثر الإيجابي للحوار في عمليتي التربية اللغوية، ومنهم (جان بياجيه)، و(سيرجيوسبينى) فيما كتبه عن التربية اللغوية.

رابعا- استعمال الموضحات البصرية في تجويد عمليات التواصل

لقد ورد في السنة الشريفة أثار كثيرة ظهر فيها استعمال الموضحات البصرية، من الرسوم والخطوط والأشكال، والحركات – لتميم عمليات التواصل بجوار الكلام أو الحديث .

والتربية اللغوية في العصر الحديث تقرر أهمية الوسائل المساعدة في عمليات التواصل وتحصيل المفاهيم، ومن ثم يقولون إن عمليات التواصل الناجحة هي التي تعتمد الحديث اللغوي مضموما إليه العناصر غير اللغوية مما ذكرت لك.

وقد تواتر الخبر عنه ﷺ باستعمال عدد من الموضحات على طريق صناعة تواصل جديد، من مثل ما ورد من الإشارة، ورسم الخطوط على الأرض بالنكت بالعصا إلى غير ذلك مما ورد عنه ﷺ .

و قد وقف عدد من المعاصرين أمام استعمال النبي ﷺ لوسائط الاتصال غير اللفظي بالفحص والتحليل من مثل الدكتور الصاوي الجويني رَحِمَهُ اللَّهُ.

خامسا- تأسيس النبي ﷺ

لما يشبه ديوان الإنشاء

ومن المدهش حقا أن نقف أمام شيء معروف في سيرته، ونتأمله بشكل مختلف، فقد عرف عنه ﷺ مخاطبة الملوك والأمراء على عهده، من باب دعوتهم إلى الإسلام وعرضه عليهم.

وقد اتخذ له من أجل ذلك كُتَّابا عرفوا في التاريخ الإسلامي بكتاب النبي ﷺ وقد اعتنى غير واحد بجمعهم وجمع ما كتبوه له ﷺ في مراسلات الملوك والأمراء في مصنفات مستقلة من مثل:

١ -المصباح المضيء في كُتَّاب النبي ﷺ إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، لابن حديدة الأنصاري المتوفى سنة ٧٨٣هـ.

٢ - إعلام السائلين عن كُتَّاب سيد المرسلين ﷺ لابن طولون الدمشقي المتوفى سنة ٩٥٣هـ.

وممن ذكرهما هذان الكتابان: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، وأبى بن كعب، والأرقم بن أبى الأرقم ، وثابت بن قيس، وجهم بن سعد، وحنظلة بن الربيع، وحويطب بن عبدالله، والحصين بن نمير، وحاطب بن عمرو، وحذيفة بن اليمان، وأبو أيوب الأنصاري وخالد بن

سعيد، وخالد بن الوليد، وزيد بن ثابت، والزبير بن العوام، وسعيد بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، وأبو سفيان بن حرب، وطلحة بن عبيد الله، وعامر بن فهيرة، وعبد الله بن رواحة، وعمرو بن العاص، والعلاء بن الحضرمي، ومعاوية بن أبي سفيان، ويزيد بن أبى سفيان وغيرهم .

ومن الممكن النظر إلى هؤلاء بما هم مدرسة بالمعنى العلمي كان لهم إنشاء أول ديوان للإنشاء، تدرب فيه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على يد رسول الله ﷺ على نوع من التربية اللغوية في مكاتبة عظماء ذلك الزمان ممن دعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام والإيمان، وهي مؤسسة نبوية رعت ما يلى :

١ - تدريب الصحابة على الكتابة بالمعنى الفني.

٢ - تدريب الصحابة على مراعاة اختلاف البيئات المتلقية في رعاية مقام المخاطب المكتوب إليه من جهة :

أ - جغرافية الإقامة من بدو أو حضر ..... إلخ.

ب - مقام المتلقي الرسمي (ملك، أمير، عظيم ....إلخ).

ج -مقام المتلقي الفكري (الأيدولوجي) (عربي مشرك، نصراني، وثني، مجوسي ...إلخ).

د - مقام المتلقي النفسي، وخصائصه الوجدانية.

وهي الأمور التي نلمح لها أثارًا في تصميم الرسائل التي كان يرسل بها رسول الله ﷺ إلى ملوك الأرض وأمرائها.

من مجموع العلامات السابقة وغيرها يتضح لنا أن ثمة ملامح لمنهج نبوي في تربية الصحابة تربية لغوية.

وهو باب من العلم يحتاج إلى قدر من التأني، ومزيد من الفحص والدراسة. وهو أمر يزيد المسلمين المعاصرين ثقة ويقينا في عظمة النبوة وشمول رعايتها للمجتمع الإنساني في كل جوانب الحياة .

وقد ظهر من هذه الورقة مجموعة من النتائج المهمة، يرجى التنبه إليها، ومنها :

أولا - نحن نرى في تربية النبي ﷺ لغويا من تمام قيامه بالبلاغ بتنشئة الجيل الأول لغويا ؛ لأن اللغة آلة البلاغ.

ثانيا - نحن نرى شمول المنهج النبوي في التربية اللغوية، ورعايته للأداء اللغوي، نطقا، وترقية للفهم، واستعمالا للقراءة بالصوت المرتفع، ورعاية للوسائل غير اللغوية (غير اللفظية) وتقدير قيمتها في عمليات التواصل الناجح.

ثالثا - نحن نرى في العناية بجيل من الكتاب بذرة أول مؤسسة تدربت على الكتابة الفنية والوظيفية، فيما يعرف تاريخيا بديوان الإنشاء، ونرى في كتاب النبي ﷺ أول مؤسسة اعتنت بتخريج جيل من الكتاب المدربين على تنويع الكتابات، ومراعاة مقامات المرسل إليهم، ومراعاة تنوع بيئاتهم المختلفة.

رابعا - اتضح مما سبق أن في السيرة النبوية أبوابا لا حدود لها يمكن أن تنفع المجتمع المعاصر في برامج التربية عموما وبرامج التربية اللغوية خصوصا، من مثل تقدير :

- ❖ ـ السماع وأثره في التربية اللغوية، من قبل المتعلمين .
- ❖ ـ الاستماع والتصحيح وأثرهما في التربية اللغوية على يد المعلمين
- ❖ ـ تشجيع برامج القراءة بالصوت المرتفع وأثرها في التربية اللغوية استثمارا لأثار الإقراء والاقتراء، كما مر .

ولا يملك المرء في النهاية إلا أن يقرر أن السيرة منهج منقذ للبشرية .

ثانيا :
مجالس الاقراء في العصر النبوي
وعلاقتها بالتربية اللغوية للصحابة رضي الله عنهم

(١) الاقتراء : مفهومه وأشكاله

الاقتراء في اللغة: هو عين القراءة، فقد روى عن سيبويه أن قرأواقترأ بمعنى واحد، كما جاء في لسان العرب (قرأ).

أما في اصطلاح علوم القرآن، والقراءات فهو إقراء القراء بعضهم بعضا ؛ بمعنى أن يجلس عدد يقرءون، وبينهم من يصحح لهم قراءتهم.

وهو مصطلح لم أجد من ذكره، أو عرف به ممن صنعوا معجمات لمصطلحات القراءات من أمثال: محمد المختار ولد إباه، والدكتور عبدالعلي المسئول، والدكتور إبراهيم سعيد الدوسري، أحمد محمود عبد السميع الحفيان.

وقد جاء هذا اللفظ في حديث أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي سنة ٢٢٤هـ في كتابه : فضائل القرآن (تحقيق مروان العطية وآخرين، دار ابن كثير، دمشق ١٤٢٠هـ =١٩٩٩م ص ٦٨) أن سهل بن سعد الأنصاري، قال : "خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقترئ، يقرئ بعضنا بعضا، فقال الحمد لله، كتاب الله عز وجل واحد فيه الأحمر والأسود، اقرءوا، اقرءوا، اقرءوا".

وربما اقترب من هذا اللفظ لفظ آخر هو : التدارس، الذى ورد في أحاديث ترغب فيه، وتمتدح فاعليه، ففي الحديث عن عقبة بن عامر، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد نتدارس القرآن، فقال : تعلموا كتاب الله عز وجل ".

ومثل ذلك ألفاظ : تعلم القرآن الكريم، ومجالسته.

ومن هنا يتضح لنا أن هذه الأربعة الألفاظ هي أكثر الألفاظ العربية دورانا في باب العناية بقراءة القرآن، وتعلمها، وإتقان قوانينها.

ويظهر من استقراء صور الإقراء في العصر النبوي حصرها في الصور الأربعة التالية:

الأولى – إقراء النبي ﷺ الصحابة القرآن الكريم، بالتعليم المباشر.

الثانية – شهود الصحابة عرض النبي ﷺ القرآن الكريم على جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الثالثة - سماع النبي ﷺ القرآن الكريم من الصحابة، فيما يشبه القراءة عليه ﷺ.

الأخيرة - جلوس الصحابة في مجالس وحلقات، يقرئ الأعلم بالقرآن الكريم غيره، ويصوب له قراءته.

وهذه الصورة الأخيرة ظاهرة في الحديثين المذكورين في بيان مفهوم الاقتراء هنا وفي كتب فضائل القرآن الكريم، وكتب علوم القرآن الكريم، والمدونات الحديثية أحاديث أخرى كثيرة تثبت صور الإقراء المختلفة المذكورة.

فمن أحاديث الصورة الأخيرة أيضا ما يروى عن الأعمش من أنه قال: " مر أعرابي بعبدالله بن مسعود وهو يقرئ قوما القرآن، أو قال وعنده قوم يتعلمون القرآن".

ونحن نلح على هذه الصورة ؛ لأنها هي الصورة التي استمرت بعد عصر النبوة، في عهد الراشدين ومن بعدهم، يقول سليمان بن يسار إن عمر بن الخطاب خرج من خوخته ؛ (أي : حجرته) فأتى على قوم يقرءون، فلما رأوا عمر أنصتوا، فقال كنتم تراجعون، فقالوا : كنا نقرئ بعضنا بعضا، فقال : اقرءوا ولا تلحنوا " (الجامع لعلوم القرآن لابن وهب، تحقيق ميكلوش موراني، دار الغرب الإسلامي سنة ٢٠٠٣م (٤١/٣).

(٢) دور مجالس القرآن في العصر النبوي في التربيـــة اللغويـــة للصحابـــة رضي الله عنهم

مفهوم التربية اللغوية مفهوم حديث نسبيا يشتبك مع علم اللغة التطبيقي في مجالين هما : اكتساب اللغة، وتعلمها، وهو يكاد يكون فرعا من فروع اللغة التعليمي.

وتحليل مجالس الاقتراء في العصر النبوي في ضوء مفهوم التربية اللغوية يمكن أن يكشف عن منهج متمايز، ودور بارز اضطلعت به مجالس الاقتراء في تربية الصحابة رضي الله عنهم لغويا.

ويكاد يدور مفهوم التربية اللغوية عند المنشغلين به حول تنمية قدرة الإنسان في الأداء اللغوي الصحيح، نطقا، وتأليفا للكلام، وفق قوانين صحة الكلام صوتيا وصرفيا وتركيبا.

وفيما يلى يحاول هذا المقال رصد العلاقة بين مجالس الاقتراء في العصر النبوي والتربية اللغوية للصحابة رضي الله عنهم وما تصنعه من ترقية الأداء اللغوي، بسبب ما تنتهجه إجراءات التربية اللغوية، ووسائلها .

وتتلخص هذه الأسس التي وفرتها هذه المجالس القرآنية فيما يلى :

أولا - التهيئة النفسية.

ثانيا - تبين الحروف، وتفصيل النطق بها في قراءة النبي ﷺ.

ثالثا - رفع الصوت بالقراءة، وطلب تحسينه.

رابعا - ترديد النص المقروء أكثر من مرة، مع تعاهد القرآن الكريم.

خامسا - تصحيح خطأ القارئ، ورده إلى الصواب.

سادسا - استصحاب النظر في المصحف المكتوب في أثناء القراءة .

وفيما يلى بيان هذه الأسس الستة التي مارسها القراء في حلقات الاقتراء في العصر النبوي مما كان من شأنها تنمية الأداء اللغوي للصحابة رضي الله عنهم.

١/٢ التهيئة النفسية :

من المقرر في أصول التربية ضرورة تهيئة البيئة النفسية للمتعلمين حتى تثمر العملية التعليمية التربوية، وقد جاء عن النبي ﷺ مجموعة من الأحاديث تمثل أصلا جامعا للتهيئة النفسية تبعث على الإقبال على برامج تلقى القرآن الكريم، وحسن أدائه وقراءته من مثل:

أ ـ السكينة والرحمة نتيجة للارتباط بمجالس الاقتراء، فعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفت بهم الملائكة، وذكرهم الله في من عنده» (أخلاق حملة القرآن، للأجري ص٥٠ حديث ٢١).

ب -رصد الأجر والثواب وعلو المنزلة للماهر بالقراءة، فقد أخرج أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن (ص٤٩) حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «إن الذى يقرأ القرآن وهو به ماهر مع السفرة الكرام البررة».

ج - تشجيع المبتدئين والضعاف والمتأخرين في التحصيل وعدم تيئيسهم، فقد أخرج أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائله (ص٤٩)عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ: « والذى يقرأ القرآن وهو يشتد عليه فله أجران"

د - مضاعفة الثواب على التلاوة، أخرج أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن (ص٥٠) من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إنى لا أقول ألم حرف ولكن ألف عشر، لام عشر، ميم عشر».

ومن هنا فإن تأمل هذه العوامل تدلنا على مدى ما يحرص الإسلام على توافره دفعا للنفوس على التقدم نحو قراءة الذكر الحكيم، الذى يحقق أصلا جامعا من أصول التربية اللغوية التي تهيأت للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

٢/٢ تبين الحروف، وتفصيل النطق بها في إقراء النبي ﷺ الصحابة رضي الله عنهم

جاء في وصف قراءة النبي ﷺ أنه كان يقرأ بتؤدة وهدوء، ويحرص في قراءته على تبيين الحروف، وتفصيل النطق بها، وهو أمر مهم جدا في برامج تعليم اللغة، وهو ما كان له الأثر البالغ في ترقية اللغوية للصحابة وفيما يلى ما يثبت ذلك :

أ - أخرج أبو عبيد في فضائل القرآن (ص ١٥٦) عن أم سلمة رضي الله عنها أنها «نعتت قراءة رسول الله ﷺ قراءة مفسرة حرفا حرفا».

ب - وأخرج أيضا (ص ١٥٦) عنها رضي الله عنها أنها وصفت قراءته ﷺ بأنه كان يقطع قراءته ؛ أي يفصلها ويبين حروفها، ويقف على رأس كل آية.

ثالثا: رفع الصوت بالقراءة، وطلب تحسين الصوت بها

ومما استقر أيضا في برامج علم اللغة التعليمي الأثر الإيجابي للقراءة بالصوت المرتفع، فمما تقرره (ماريان وايتهيد) في كتابها عن التنمية اللغوية أن القراءة ذات المغزى بالصوت العالي لها أثر إيجابي فعال في تنمية اللغة والتواصل بين المتعلمين، وهو الأمر الذى كان يحرص عليه رسول الله ﷺ مع أصحابه، فمما جاء من وصف قراءة النبي ﷺ أن عبد الله بن المغفل قال : « رأيت رسول الله ﷺ يوم الفتح على ناقته يسير وهو يقرأ ... ثم قرأ معاوية قراءة لينة ورجع» والترجيع : تحسين الصوت بالتلاوة.

ومن ذلك أمره ﷺ للصحابة بقول: « زينوا أصواتكم بالقرآن» .

وهذان الحديثان مثالان على عناية المنهج النبوي للقراءة بالصوت العالي الحريص على التزيين، وهو من العوامل الفاعلة في التنمية اللغوية للأفراد.

مما جاء عن رسول الله ﷺ وتعليمه الصحابة رضي الله عنهم الحرص على ترديد النص المقروء أكثر من مرة صحيح أن ذلك كان بدافع الإعانة على التدبر المفضية إلى الخشية، والتأثر بالمعنى المتضمن في الآيات، لكنه يؤدى في الوقت نفسه إلى استقامة طرائق النطق، وبرامج علم اللغة التعليمي، في المختبرات والمعامل اللغوية تحرص في بعض مستويات تعليم اللغة على الترديد للنص المقروء طلبا لضمان صحة أدائه، ومما يدل على ذلك:

أ -ما أخرجه أبو عبيد في الفضائل (ص١٤٦) : « أن ابن مسعود صلى ليلة، قال : فذكروا ذلك، فقال بعضهم : هذا مقام صاحبكم منذ الليلة يردد آية حتى أصبح .قال ابن عون: بلغني أن الآية : ﴿...رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [سورة طه].

ب - ومثل ذلك التعبير وارد عن كثير من الصحابة من مثل : الفضائل (١٤٥) فلم يزل تميم الداري يرددها حتى أصبح . وعن أسماء بنت أبي بكر أنها ذهبت إلى السوق في حاجة ثم رجعت وهي تكرر ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الطور] كما تواتر الأمر بتعاهد القرآن الكريم ؛ أي مداومة الاتصال به، وحفظـــه، وهما أمران فاعلان فاعلية إيجابية في التربية اللغوية، بما هو المثل الأعلى .

إن فكرة الإقراء، والسماع قائمة في الأساس على إقامة المثال الحي على القراءة الصحيحة، وهو الأمر المفهوم من عبارة « أقرأنيها رسول الله ﷺ » التي ينطق بها كثير من الصحابة عند الاختلاف معهم.

وليس يعقل أن يستمع رسول الله ﷺ ولا الصحابة العلماء إلى من يقرأ فيخطئ من دون تدخلهم برده إلى الصواب ذلك أن رسول الله ﷺ بعث ليبلغ، وليس من شأنه ولا سمته أن يسكت على الخطأ أو باطل. ومن أجل ذلك تواتر الأمر بتجنب اللحن، أو الخطأ في القراءة، في مثل :

أ ـ أخرج ابن وهب في الجامع٣/٤١ حديث٧٣ عن عمرأنه قال: « اقرءوا، ولا تلحنوا».

ب -وأخرج كذلك ٣/٤٢ حديث ٧٨ عن ابن عياش عن سعيد بن عبد الله القرشي عن أبى الزناد أن رجلا قرأ عند رسول الله ﷺ ، فلحن، فقال رسول الله ﷺ: «أرشدوا أخاكم».

ومن أجل ذلك لم يكره العلماء نقط المصحف، ولا شكله ليعينوا على القراءة السليمة المنضبطة ، فمما جاء في ذلك:

أ - ما أخرجه وهب في الجامع ٣/٤١ حديث ٧٤ عن نافع قال : « سألت ربيعة بن عبد الرحمن عن شكل القرآن في المصاحف، فقال: لا بأس بذلك» .

ب - وأخرج كذلك ٣/٤١ حديث ٧٥ عن الليث بن سعد قال : « لا أرى بأسا أن ينقط المصحف».

سادسا : استصحاب النظر في
المصحف المكتوب مع القراءة

ومما استقر كذلك أن استثمار أكثر من حاسة في عملية التعلم مثمر بدرجة أعلى، مقارنة باستعمال حاسة واحدة.

ومن هنا فإننا قد نفهم من الأمر بالنظر في المصحف في أثناء التلاوة ما يسرع بتنمية القدرات اللغوية والقرائية لدى من يفعلون ذلك، وقد أثبت علم النفس التعليمي أن استصحاب الصورة، أو الرموز الحرفية معين جدا في عمليات تحسين التعليم، وتحسين القراءة.

وقد جاء في السنة النبوية نصوص كثيرة تحض على النظر في المصحف في أثناء قراءة الذكر الحكيم، مما يفهم منه الأثر الإيجابي للتربية اللغوية التي حصلها الصحابة الكرام، من مثل :

أ -أخرج أبو عبيد القاسم بن سلام في الفضائل (ص١٠٤) عن زر بن حبيش قال : قال عبدالله (بن مسعود) : «أديموا النظر في المصحف».

ب -وعنه في الفضائل(١٠٥) عن عمر أنه «كان إذا دخل بيته نشر المصحف فقرأ فيه».

ج - وعنه في الفضائل (١٠٥) عن ابن عمر أنه قال :« إذا رجع أحدكم من سوقه فلينشر المصحف، فليقرأ».

د - وفيه (١٠٥) عن ابن مسعود أنه «كان إذا اجتمع إليه إخوانه نشروا المصحف فقرءوا ».

من مجموع ما تقدم يتضح لنا أن السيرة النبوية المطهرة تمتلك رصيدا ضخما صالحا للفحص، والتحليل، وخدمة الحركة المعرفية والتربوية المعاصرة في جوانبها المختلفة.

وقد ظهر لنا كيف أن المنهج النبوي حقق للصحابة الارتقاء اللغوي عن طريق برامج تفصيلية، وثقها وأكدها المعاصرون في مجال التربية اللغوية.